﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٢٦﴾ [الحديد: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من إجمالِ الرّسالات إلى تَفْصيلِ ميراثِ النّبوةِ في ذرّيّةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

بعد أن ذكَر سُبْحانَهُ في الآية السّابقةِ إرسالَ الرُّسُل مؤيَّدين بالبيّنات، محمَّلين بالكتاب والميزان، ومنَحَهُم ما بهِ تقومُ الحجّةُ، وتثبت الدّعوة؛ فصّل في الآية ذلك الإجمالَ[1]، فخصّ بالذّكر نوحًا وإبراهيمَ عليهما السلام؛ إذْ هما أصلان عظيمان في سلسلةِ النّبوّات، ثُمّ بيَّن أنّه جعلَ في ذرّيَّتهما ميراثَ النُّبوَّة والكتاب، فاستمرَّ في أعقابِهما نورُ الوحي والهداية، فجاءت الآيةُ الأولى بإجمالِ إرسالِ الرّسل بالكتُب، وجاءت الثّانية بتفصيلِ ذلكَ؛ بذِكْرِ أبرز المُرْسَلين وميراث الرّسالة في أعقابِهم؛ ليَظْهَرَ جلّيًا اتّصالُ السّلسلة النّبويّة وانتظامُها في حكمتهِ تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾: اسمٌ مؤنّث، جذره اللّغويّ: (ذرر)، والذّال مع الرّاء المشدّدة أصلٌ واحدٌ يدلّ على اللّطافة والانتشار، والذَّرُّ: صغار النّمل، وأنْ تأخُذَ المِلْحَ بأطراف أصابعك، فتذرّه على الخبز، ومِن هنا أُخِذَتِ الذُّرّية، فإنَّه تعالى نثَرَهُم على الأرض[2]، ومَن ذهَب إلى هذا الأصلِ جعل الذّريّة من الذّرّ؛ إذِ استَخرَج اللّهُ تعالى ذرّيَّة آدمَ مِن ظَهْرِه كهيئة الذّرّ حين أشْهَدَهُم على أنْفُسِهم[3]، ويُقال: ذَرَّ الله الخلق في الأرض، أي: نشرَهُم نشرًا دقيقًا مسترسلًا، وذرّية الرّجلِ:

(1) الشربيني، السراج المنير: 4/ 214.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذرا).

أولاده[1]، وأصلُ الذّرّيَّة: الصِّغارُ مِنَ الأولاد، ثُمَّ غلب استعمالُها في المُتَعارَف على الصّغار والكبار جميعًا، وتأتي للواحدِ وللجَمْع[2]، وإن كان أصلُها الجمعَ، ومعنى ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ في الآية موضع الشّاهد: نِسْل نوحٍ وإبراهيم ﷺ، فصار أكثرُ الأنبياءِ والرّسل من ذرّيَّتِهما، وبِهِما ارتبطت سلسلة الهدايَةِ في الأمم[3].

2) ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾: مصدر للفعل (نَبا يَنْبو)، وجذره اللّغويّ يجوز أن يكون من: (نبو) أو مِنْ (نبأ)، ومعناه: الخروج والطّلوع، يقال: نبا على القوم؛ إذا طلَعَ عليهم، والأصل في النّون والباء والحرف المعتلِّ في لسان العرب: دلالتُه على الارتفاع عن الشَّيء، أو التّنحّي عنه، وإذا كان مهموزَ الآخِر؛ فمعناهُ: الإتيانُ من مكان إلى آخرَ، كالخبر الوارد من مكانٍ إلى مكان[4]، والنَّبيُّ في لسان العربِ هو العلَمُ من أعلام الأرض يَهْتَدي به السّائرون، ومِن هذا المَعْنى سُمّي النّبيُّ نبيًّا، فهو أرفَعُ خلقِ اللّهِ تَعالى مكانةً، وهو المُبلّغ عن اللّهِ تعالى، ولفظُ النَّبيِّ بغير همزٍ أبلَغُ؛ إذ ليسَ كلُّ مَن يُنَبِّئُ يكونُ رفيعَ القَدْرِ والمحلّ، فالنّبيُّ ارتفع قدرُه على سائر الخلق، وتشرَّف عليهم، والنّبوَّة: سفارَةٌ بين اللّه تَعالى وبين ذوي العقول من عبادِهِ؛ لإزاحة عِلَلِهِم في أمر معادِهِم ومعاشهم[5]، وهو معنى النّبوّة في الآية الكريمة.

3) ﴿مُّهْتَدٍ﴾: وصفٌ على وزن (مُفْتَعِل)، من الجذر اللّغويّ: (هدي)، ومنه اشتُقّ لفظ الهدى الذي هو نقيض الضّلالة وضدّها، ومن معانيه: البيان والإرشاد بإخراج الشّيء إلى غيره، وكذلك: الطّاعة والورع، والدّلالة إلى الطّريق، وهذا المعنى يقوم على أصلين اثنَيْن، أوَّلُهُما: التَّقدُّم للإرشاد، وثانيهما: بعثة لطف، وهما متقاربان في الدّلالة، والمتقدّم هو الهادي، والهُدى يتضمّن معنى التَّلطُّف في الدّلالة، ومنه جاءت الهداية في الآخرة إلى الجنّة، وبيان الوجهة إمّا بالتّقدُّم، وإمّا بالكشف[6]، ومعنى ﴿مُّهْتَدٍ﴾ في النّصِّ الكريم: مستجيبٌ للحَقِّ[7]، منقادٌ لهَدْيِه، قابل لِما دُعيَ إليه مِن إيمان ورَشادٍ.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرو - ذرى).
(2) الراغب، المفردات: (ذرو).
(3) الفيروزابادي، تنوير المقباس، ص: 459.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدي).
(7) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 545.

4) ﴿فَٰسِقُونَ﴾: جَمْعُ سلامةٍ للمذكَّر، مفردُهُ: فاسِق، وأصله من الجذر اللّغويّ: (فسق)، ويقال: فَسقتِ الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِن قِشْرِها، والفسق: أن يترُكَ المرءُ ما أمَرَ اللّهُ تعالى به، ويميلَ إلى المعاصي، ومنه الفِسْقُ، وهوَ الخروجُ عن الطّاعة[1]، ويُطلَق لفظُ الفاسق على مَن التَزَمَ حُكْمَ الشَّرع، وأقرَّ به، ثُمّ خرج عنه قليلًا أو كثيرًا، ويُطْلَقُ أيضًا على الكافر الأصليّ، باعتبار إخلالِهِ بِما تَقْتَضيهِ الفطرَةُ، ويدلّ عليه العقل[2]، ومعنى ﴿فَٰسِقُونَ﴾ في النّصّ المبارك: ضالّون قَد خرجوا عن طاعة اللّهِ تَعالى، وانحرفوا إلى معصيتِه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ اختصاصِ ذرّيَّةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام بالنُّبوَّة

ولقد بَعَثْنا نوحًا أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، ثمّ أتبعناهُ بإبراهيمَ خليلِ الرّحمن، وجعلنا في نَسْلِهِما موضعَ الاصطفاء، فخصَصْنا ذرّيَّتَهُما بالنُّبوَّة وميراث الكتاب، فكانت فيهم مشاعلُ الهداية، ومصابيح البيان، غيرَ أنّ حالهم لم يَسْتَوِ على سواءٍ، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ منقادٌ للحقِّ، مستجيبٌ لدعوة الرّسل، مستقيمٌ على أمر اللّهِ تَعالى، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قد تخلّوا عن طاعةِ ربِّهم، وخرجوا عن جادّة الحقِّ، فانحَرَفوا عن سواءِ السّبيلِ، فاستَحقّوا الذَّمَّ والخذلانَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ العطف في قولِهِ: ﴿وَلَقَدْ﴾:

بيانُ مكانةِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام، وفَضْحُ انحرافِ المُشْرِكينَ

قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ معطوفٌ على جُمْلَةِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وهو مِن بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لبيانِ التَّفصيل بعد الإجمالِ إظهارًا لمكانة نوحٍ وإبراهيمَ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(2) الراغب، المفردات: (فسق).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 545.

ﷺ، وكشفًا عن شدَّة انحراف المشركين مِنَ العرَبِ واليهود عن مَنْهَج أبوَيهِم العظيمَين[1].

بلاغة التوكيد بـ(اللّامِ)، و(قد):

الإرسالُ حقيقةٌ جليلةٌ راسخَةٌ

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ هي لامُ جوابِ قسَمٍ مقدَّر[2]، و(قد) حرفُ تحقيقٍ[3]، دخل على فعل الإرسال ليحقّق الوقوعَ، مستفيدًا من دلالةِ المُضيِّ في الفعل الذي يدلّ على وقوعِه وانتهائِه، والتّقدير: واللّهِ لقَد أرسلنا نوحًا وإبراهيمَ[4]، فبعثة هذين النَّبيَّيْن ليسَت أمرًا عابرًا، بل هيَ حقيقَةٌ جليلَةٌ راسخَةٌ، قُرِنَت بالقَسَم وحرف التحقيق لزيادَةِ التَّقْرير، وإلزام السّامعين بالإذْعانِ لَها، وتأكيد الثُّبوتِ المطلقِ للبَعْثِ، وإزالة كلِّ شكٍّ حول حقيقةِ ما أُرسِل به هؤلاء النَّبيّونَ.

سِرُّ تكرارِ الفِعْل ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

إظهارٌ لعظيمِ مقامِ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ

كُرِّرَ فعل الإرسال؛ لأنّه جاء تفصيلًا لبعضِ الإجمال[5]؛ وذلك لبيانِ خُصوصيَّة هذَيْنِ النّبيَّيْنِ ومكانتهما بين الرّسل، ويُظهر كيف أعرضَ عَن مَنْهَجِهما بعضُ العربِ واليهودُ، فجاء التّكرارُ للتّأكيدِ والتّخصيص.

دلالَةُ إسنادِ فِعْلِ الإرسالِ إلى ضَميرِ العظَمَةِ:

عظمةُ الإرسالِ، وجلالُ المرسِل، وعلوُّ مكانةِ المرسَلِ

أُسنِدَ فعل الإرسالِ إلى ضمير العظمَةِ (نا) في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وهي راجعةٌ إلى الله تعالى المتّصف بالكمال والجمال والجلالِ[6]، فدلَّ ضميرُ العظمةِ على عظمة فِعل الإرسالِ وجلال المرسِلِ سُبحانَهُ، ورفعةِ مكانةِ المُرْسَل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 419.
(2) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2403.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 625.
(5) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 310.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 303.

دلالَةُ تكرارِ القسَمِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

كمالُ العنايةِ وتأكيدُ البَعْثِ، وإظهارٌ لعظمَةِ الأنبياءِ

كُرِّرَ القسم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، بعد ذِكْرِهِ في صَدْرِ الآيةِ قبلها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ لإظهار مزيدِ الاعْتِناءِ بالأمْرِ، والمعنى: واللّهِ لقَد أرْسَلْناهُما[1]، وفيه تشديدٌ على حقيقة البَعْث، وإبرازُ عِظَمِ شأنِ النّبيَّين الكريمَيْن.

توكيدٌ مضاعَفٌ يُرَسِّخ حقيقة الإرسالِ:

وفي تكرار القسمَ مبالغةٌ في التَّوكيد[2]؛ إذْ يُضاعِف القسَمُ قوَّةَ الخبر، ويشدِّد على حقيقة الإرسال، ويثبت في الأذهانِ عظمة بعثةِ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ.

سِرُّ تخصيصِ نوح وإبراهيمَ بالذِّكر:

تشريفٌ في الذِّكر لا يُجارى، ومكانةٌ في الرّسالة لا تُبارى

خُصَّ نوحٌ وإبراهيمُ ﷺ بالذِّكْرِ دون غيرهما مِنَ الأنبياء والرُّسل تشريفًا لَهُما، وإظهارًا لعظَمَتِهما ومكانتهما؛ ولأنَّهما من أوائل الرُّسُل الذين أسَّسوا منهجَ الهداية، وأرسوا قواعدَ الرّسالة[3].

تمهيدٌ لبَيانِ فَضْلِ محمّدٍ ﷺ

ولَمّا عَمَّ الرُّسلَ قبلُ جامعًا لهم في البيّنات؛ كان السّامع جديرًا بأن يتوقَّع التّعيينَ؛ فاختير من بينهم نوحٌ وإبراهيمُ ﷺ؛ لأنَّ ذلك أنسبُ لمقصود السّورة في بيان فضل محمّدٍ ﷺ الذي عمّت رسالتُه الجميعَ، ولم يكن لأحدٍ غيرُه مثلُ هذا العموم، فجاء نوحٌ ﷺ مرسلًا لأهل الأرض؛ لكونِهم على لسانٍ واحد، وعمّ إبراهيم ﷺ بأولادِهِ ﷺ، ثمّ نُصَّ بعدهما على عيسى ﷺ؛ لما له مِن عموم الرّسالة إلى بني إسرائيل بالنَّسخِ والتَّشريع[4].

أبوّة نوحٍ إبراهيمَ محلُّ اتِّفاق الملل

ويجوز أن يكونَ التخصيص؛ لأنَّ نوحًا ﷺ أبو البشر، فقد جاء بعد آدم ﷺ، وأمّا إبراهيمُ؛ فهوَ أبٌ أخصُّ؛ إذ هو أبو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(2) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 213.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 269.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 303.

الأنبياءِ، وخُصَّ بالذّكر لاتّفاقِ المِلَلِ عليه، وللإيماءِ إلى موافقةِ شريعَتِه لشَريعَتِنا[1].

توازنٌ بين شدَّة نـوحٍ وصلابتـهِ ولـينِ إبـراهيـمَ ورقَّتِهِ

والتخصيص أيضًا؛ لأنَّ نوحًا ﷺ كان في غاية القوَّة والشّدَّة، وإبراهيمَ ﷺ في غاية اللّين والسُّهولةِ، وهكذا هم أولياءُ كلِّ زمان، بعضهم يميل إلى القوَّة والصَّلابةِ في التّمسُّك بالحقِّ، وبعضُهم يميل إلى الرّقّة واللّين في الدّعوة[2]، فجاء التَّخصيصُ؛ ليُبيّن التّوازُنَ في سنن الهداية ومظاهر اختلاف الأنبياء في الصّفاتِ.

سِرُّ تقديم نوحٍ على إبراهيم ﷺ:

نـوحٌ ﷺ الأب الثّاني للبَشَريّة، وإبـراهـيـمُ ﷺ أبٌ للأنبياءِ

تقديم نوحٌ ﷺ على إبراهيمَ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ راجع إلى الزَّمان؛ إذ إنَّ واو العطفِ - في أحدِ معانيها - تعطف الشَّيءَ على لاحقه[3]، ونوحٌ ﷺ هو أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، والسّابق زمنًا في الرّسالة، فهو الجدُّ الأعلى، والأبُ الثّاني للبشريَّة[4]، فكان تقديمُه إعلاءً لشأن البدايات والأصول، في حين أُخِّرَ إبراهيمُ ﷺ في الذِّكرِ، وإن عَظُمَ شأنُهُ؛ لكونه الأبَ الجامع الذي انتسبَت إليه سلسلةٌ عظيمة من الأنبياء، وصار معظَّمًا في جميع الشّرائع[5].

سرُّ عدمِ ذِكْرِ وصف الرّسل مع فعلِ الإرسالِ:

تـشـريـفُ نـوحٍ وإبـراهـيـمَ ﷺ وتفخيمُ شأنِهما

ذُكِر الاسمانِ الشّريفانِ مُباشرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ دون ذكر لفظِ (رسلَنا)، فلم يقل: (ولقد أرسلنا رسُلنا نوحًا وإبراهيمَ)؛ لأنَّ المقصود هنا ليس مجرَّد الإخبار عن الإرسالِ، بل إبرازُ مكانَتِهما في سِجِلِّ الرّسالة، وإظهارُهما عَلَمَين

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 329.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 148.
(4) رضا، تفسير المنار: 7/ 488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 114.

بارِزَيْنِ في مسيرة النُّبوَّة، فلا يُحْتاجُ معَهُما إلى تَكرار لفظِ (رُسُلَنا) الذي يوحي بالجَمْعِ العامّ ابتداءً ثمَّ تخصيصُهُ بالتَّنصيص على اسمَي النَّبيَّيْنِ الكريمَيْنِ، بُل حُذِف تشريفًا وتفخيمًا لهما، وتنصيصًا على استقلاليَّة موقعهما في تاريخ الهداية، فنوحٌ فاتحة الرّسالات العظمى بعد حدوثِ الشِّرْكِ، وإبراهيم أبو الأنبياءِ وموئِل المِلَل، فكان ذِكْرُ الاسم مؤذنًا بإشعاع حُضورِهما في الذِّهن بلا حجابٍ، ولتَقَعَ العظمَةُ على السّامع صريحةً جليّةً.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

تكريمُ اللهِ تَعالى لَهُما بامتِدادِ الرِّسالَةِ في عَقِبَيْهِما

عُطِفَ فِعْلُ الجَعْلِ في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ﴾ على فِعْلِ الإرسالِ[1]؛ لِما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ فإنَّ الجملتين متَّحدتان خبرًا، وبينهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا في اللَّفْظِ؛ فكلتا الجملتين فعليَّةٌ ماضويَّةٌ، اتَّحد فيهما المسنَدُ إليه، وأمّا في المعنى؛ فإنَّ تعقيبَ جملة الجَعْلِ بعد جملةِ الإرسالِ يدلّ على أنّ إرسال الرّسل لم يكن مقصورًا على بعثةِ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ حسبُ، بل تَبِعَهُ تكريم إلهيّ آخَرُ؛ هو تثبيت النّبوّة في عَقِبَيْهِما، وكأنَّ الجعل جاء مكمِّلًا للإرسال، ومؤكِّدًا امتدادَ الرِّسالة عبر الزَّمنِ والأنساب.

سِرُّ التَّعبير بفِعْلِ الجَعْلِ ماضيًا:

تصيير النُّبوَّة في الذُّرِّيَّة تدبيرٌ مُحْكَمٌ وتمكينٌ متتابِعٌ ووعاءٌ حافِظٌ

الجَعْلُ في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى: التّصيير[2] الذي يفيد التَّحويل من حالٍ إلى حال، فكأنَّ الله سبحانه قد صيَّر النُّبوَّة والكتاب قرينة راسخةً في نَسْلِ نوح وإبراهيم ﷺ؛ ليَشيَ بأنَّ هذا التَّخصيصَ لَم يكُن عطاء عابرًا أو منحةً طارئة، بل كان تدبيرًا ربّانيًّا مُحْكَمًا، وتقديرًا إلهيًّا ثابتًا مُتتابِعًا في أصلاب

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.

ذُرّيَّتِهما، وذلك يُضْفي معنى التّمكينِ والتّثبيت، فالنّبوّة لم تُلقَ إلقاءً، بل أُنْشِئَت إنشاءً، وصوّرت فيهم تصويرًا؛ ليكونوا وِعاءَها الحافظَ، ومَعْدِنها الذي لا يزولُ، والتَّعبيرُ بفِعْلِ الجَعْلِ يُبيّن إسنادَ النّعمةِ وإيداعَها لَهُم، أيْ: إنَّ اللّهَ تَعالى استَنْبَأهُم، واختارَهُم، وأوحى إليهم الكتابَ والنُّبوَّة[1]، فجاء هذا الفعلُ؛ ليُظْهِرَ التّقديرَ الإلهيَّ لهَذِهِ النِّعَم، ولتَحْويلِها إلى نصيبٍ ثابتٍ لَهُمْ.

تفضيلٌ ربّاني ومنحةٌ إلهيَّةٌ باختيارٍ حكيمٍ، لا بطَبْعٍ ولا وراثةٍ لازمَةٍ

وفي التّعبير بفعل الجَعْلِ أيضًا إشارةٌ إلى تفضيل اللّهِ تعالى ذرّيّةَ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ بالنّبوّة والكتاب[2]، وهما منحة إلهيّة، وتكريم ربّانيّ، أُنزلا عليهم باختيارٍ حكيم، لا بطَبْعٍ فيهم، ولا وراثةٍ لازمَةٍ.

وعُبِّر بفعل الجَعْلِ ماضيًا دونَ المُضارع؛ لبيانِ أنّ الأمْرَ واقِعٌ ومتحقّق بالفِعْلِ؛ إذْ يُفيدُ الفعلُ الماضي وقوعَ النّعمَةِ وتحقُّقَها للذّريّة المذكورَةِ.

دلالَةُ إسنادِ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَة:

تعظيمُ الجَعْلِ وفاعِلِهِ، وتفخيمُ شأن النُّبوَّةِ ومَنْ جُعِلت فيهم

أُسْنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظمَةِ (نا) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا﴾؛ للإشارَةِ إلى تعظيمِ الذّات الإلهيّة، وإظهارِ الجلال والكمال[3]، فاللّهُ تعالى يُعبِّر عن فِعْلِهِ بصيغة الجمع لا للتّعدد؛ للدّلالة على عظمة القدرة، وكمال السّلطانِ، فكان في هذا الإسنادِ تعظيمٌ للجَعْلِ ولفاعِلِهِ، وتعظيمٌ لشأنِ الأمر المجعولِ، وهو النُّبوَّةُ، وتعظيمٌ للمجعولِ فيهم، وهم ذرّيَّةُ نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ، فكان هذا تعظيمًا مضاعفًا من جميع الجهاتِ.

دلالَةُ استعمال حَرْفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ دونَ (اللّام):

احتواءٌ حقيقيٌّ للنُّبوَّة والكتابِ مُتَغلغلٌ في الذُّرّيَّة

عُبِّر بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ دون اللّام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لما توحي إليه مِنَ الاحتواءِ والوُجودِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 202.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 303.

داخِلَ الذّرّيَّة لا مجرّد الاختصاصِ أو الانتماءِ الخارجيِّ، والمعنى: أنَّ النُّبوَّةَ والكتاب متحَقِّقان فيهم بالفِعْلِ، سواءٌ أكان ذلك بالأصالةِ أم بالتّبعيَّةِ، فالكتابُ يوحى للأنبياء مِنْهُم، فيعمّ ذرّيّةَ إبراهيمَ عليه السلام التي هيَ مِن ذرّيّة نوحٍ عليه السلام، ويشمل الأمرُ أولادَهُ ومَن تَبِعَهُم مِنَ الأنبياءِ، كموسى وداودَ وعيسى ورسولنا محمَّدٍ ﷺ، فجاءت الظّرفيّةُ توضيحًا لمَعْنى جَعْلِ النّبوَّةِ فيهم[1].

إظهارُ تحقُّق النّبوّة في المُختارينَ مِنْهُمْ بحسَبِ مشيئة اللّه تَعالى وحِكْمَتِه

وفي جعل الذُّرّيَّة ظرفًا للنّبوّةِ دلالةٌ على أنّ النّبوّة متحقّقة في بعضٍ مِنْهُم لا في جَميعِهِم بالضّرورة، أي: إنَّ الله تعالى اسْتَنْبَأ بعضًا من ذرّيَّتهم؛ ليكونوا حامِلين للنُّبوَّة والكتاب[2]، فجاءت الظّرفيَّة لتحقّق ذلكَ في المُنْتَخَبين منهُم بحسبِ مشيئةِ اللّه تَعالى وحكمته البالغة.

سِرُّ التّعبير بالذُّرّيّة دون الأبناءِ أو النّسْلِ:

الإشارةُ إلى تعاقُبِ النُّبوَّة في الذُّرّيَّةِ على امتدادِ أزمِنَتِها

استُعْمِلَ لفظُ الذّرّيّة دون الأبناء أو النّسل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾؛ لكونه أعمَّ وأشمل، فالذرية تشمل الأولاد وما يتبعهم من أحفاد إلى نهاية النسل، بما فيهم ولد البنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84]، إلى أن قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: 85]، فإنما هو من ذريته من قبل أمه؛ لأنَّه لا أب له[3]، أمّا النسل؛ فلا يدخل فيه ولد البنات، وأمّا الأبناء؛ فيختصّون بأولاد الرّجلِ وأولاد أولادِهِ الذّكور على وجه التّكريم، ومن هنا ففي التّعبيرِ بالذُّرّيّة دلالة على استمرار النِّعمة، وانتشار النُّبوَّة والكتاب عَبْرَ الزّمنِ؛ لأنَّه أوسع وأدقُّ في بيانِ الامْتِدادِ البَشَريِّ والرّوحي الذي نُشِرت فيه الرّسالات، وظهرت فيه النُّبوَّة والكتابُ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 474.
(2) محي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، ص: 4927.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 94.

دلالَةُ الإضافة في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

تَـخْـصِـيـصُ الفَضْلِ وتَشْريفُ النَّسَبِ

أضيفَت الذُّرِّيَّة إلى الضَّمير العائدِ إلى نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾[1]؛ لإفادَةِ تخصيص النّبوّة والكتاب في نَسْلِهما، فما جاء نبيٌّ بعدَهُما إلّا مِن أولادهما[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى شرَفِ النّسَبِ، ودوام الفَضْلِ الإلهيّ في عَقِبِهما المبارك.

بلاغَةُ تَقْديمِ شبه الجملة: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

اختصاصُ النّبوّة في نَسْلِ نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام

قُدّم شبه الجملة ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ - وهو المفعول الثّاني - على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ - وهو المفعول الأوّل - [3]؛ لإفادة معنى القصْرِ والتّوكيد؛ إذ لم يأتِ بعدهما نبيٌّ يحملُ رسالة السّماء إلّا وهو مِن سلالَتِهما[4]، فكان التّقديمُ إيذانًا بحَصْرِ النّبوّة في نَسْلِهِم المبارك، وتوثيقًا للرّابطة بين مقامِ النّبوّة وأصلِهِم الكريم.

دلالَةُ التّعبيرِ بالإفراد (ذرّيّة):

النّاسُ بعد الطّوفانِ كلُّهم من ذرّيّةِ نوحٍ عليه السلام

في استعمال المفردِ (ذرّيّة) دون الجمع (ذرّيات) لطافةُ إيجازٍ ورهافةُ معنًى، فلفظ (ذُرّيّة) في لسان العرب يُسْتَعْمَلُ مرادًا به الجمعُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: 9]، وقد يُستَعمَلُ للواحد، كما في قوله تعالى حكايةً عن قول زكريّا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]، وفي إيثار المفردِ إيماءٌ إلى أنَّ ذرّيَّتَهما واحدةٌ؛ إذ إنَّ النّاسَ بعد الطّوفانِ كلَّهم من ذرِّيَّةِ نوحٍ عليه السلام، كما دلَّ عليه قولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: 77].

دلالَةُ تثنية الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾:

استِقلالُ كلٍّ مِن نوحٍ وإبراهيمَ عليهما السلام بالكرامةِ الرَّبّانيّةِ

أُضيفَ لفظُ الذُّرِّيَّة إلى ضمير التَّثنية الرّاجع إلى نوحٍ وإبراهيمَ

(1) القنوجي، فتح البيان: 13/ 423.
(2) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 496.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 476.
(4) محي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، ص: 4927.

ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، مع أنَّ ذرّيَّة إبراهيمَ ﷺ هي ذرّيَّةٌ لنوحٍ ﷺ؛ إذِ البشَرُ كلُّهم بعدَ الطّوفان كانوا مِن ذُرّيَّته، ووجهُ الإضافةِ إلى ضميرِ التَّثنية هو الإشارَةُ إلى استقلالِ كلٍّ مِنَ النَّبيَّيْنِ الصّالحين بالكرامة الإلهيَّة لَهُما ولذُرّيَّتِهما.

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ معرفةً دونَ الرِّسالَة:

في ذرّيّة نوحٍ وإبراهيم ﷺ الأنبياء والرّسل

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ دون الرّسالة؛ لأنّ مَن أُكرِموا مِن ذُرّيَّتهما ليسوا كلُّهُم رسلًا، بل فيهم أنبياءُ حسبُ، فكان لفظُ النّبيِّ أصدقَ وأشمَلَ، ففي اختيار لفظِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ دلالةٌ على عمومِ الاصطِفاء، و(أل) في لفظِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ أنَّ اللّهَ تعالى جعل في ذرّيَّة نوحٍ وإبراهيم ﷺ النُّبوَّةَ، وهي الوحيُ الإلهيُّ الخاصُّ.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾:

العنايةُ بعلوِّ المَنْزِلةِ لا بِخُصوصِ الأفرادِ

آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بلَفْظِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ دون لَفْظِ (الأنبياء)؛ لأنَّ المَقْصودَ هو بيان المنزلةِ نَفْسِها لا تعداد أصحابِها، فالنُّبوَّةُ وصفٌ للوحيِ الإلهيِّ[1]، وما يُفيضُهُ مِن هدايَةٍ، بخلافِ الأنبياءِ فَهُم الذين يَحْمِلونَ هذا الشّرفَ.

دلالَةُ عطفِ (الكِتاب) على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾:

إظهارُ تَمامِ النِّعْمَةِ وكمالِ المِنّة

عُطِف (الكتاب) على ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ للكَشْفِ عن تمام النّعمةِ، وكمال المنّة؛ إذْ لَم يقتَصِر الفضلُ على مَنْحِ النُّبوّة وحدَها، بل جُعِلَ معَ النُّبوَّةِ كتابٌ منزّل يُتلى، ويُعْمَل به[2]؛ ليكون دليلًا وشاهدًا وحجّة قائمةً على الأمم، فهو جَمْعٌ بين مقام الاصْطِفاء بالوحيِ، ومقام التّوريثِ للشَّريعَةِ.

بلاغة تقديم ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ على (الكتاب):

قُدِّمَتِ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ﴾ على (الكتابِ)؛ لأنّها الأصل الذي تُبْنى عليه

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 329.

(2) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 310.

الرّسالاتُ، فلا كتابَ إلّا بنبيٍّ سابقٍ يتلقّى الوحيَ، ويحملهُ إلى النّاس، فالنّبوّة أساسُ المقامِ ومفتاح الرّسالة، وإنّما لم يُقدَّم الكتاب؛ لأنّ كمال حالِ النّبيّ أن يَرْقى من الاصطفاءِ المجرَّدِ بالوَحْيِ إلى مَقام صاحبِ الكِتاب والشَّرْعِ[1]؛ ليَكْتَمِلَ بها كيانُ الرّسالة، وتتمَّ نعمَةُ التّشريعِ.

النّبوّةُ أساسُ المقام ومفتاح الرّسالة

سِرُّ التّعبيرِ بلفظ الكِتابِ مُفْرَدًا:

جاءَ التّعبيرُ بلفظ (الكِتاب) مفردًا؛ لأنّ المرادَ بهِ الجِنْسُ، فيعمُّ كلَّ كتابٍ مُنَزَّل[2]، فهو وإن كان مفردًا في اللَّفْظِ، إلّا أنَّه في معنى الجَمْعِ، والمرادُ الإشارةُ إلى جنسِ الكتابِ لا تعدادُ الكتاب أو التّفصيل فيها، فيكونُ اللَّفظُ شاملًا التّوراةَ والإنجيلَ والزّبورَ والفرقانَ وسائرَ الكتبِ السّماويّة[3].

(الكتاب) جنسٌ يشمَلُ كُلَّ كتابٍ مَنَزَّلٍ

وجوَّزَ بعضُ أهل العلم إفراد لفظ (الكتاب)؛ لأنَّ المرادَ بهِ الخطُّ بالقلم[4]، فهو وسيلَةُ التَّدْوينِ والتّوثيقِ التي تُنقل بها المعارف والشّرائع، فلا يَقِفُ المعنى عند الكتبِ السّماوية حسبُ.

الخطُّ بالقَلَم وسيلةُ توثيقٍ وتَدْوينٍ

دلالَةُ التّعبيرِ بالفاءِ في قولهِ: ﴿فَمِنْهُم﴾:

الفاء في ﴿فَمِنْهُم﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على السَّبَبيّة[5]، فالاهتداءُ نتيجة لهذا الاصطفاءِ الإلَهيِّ، والمعنى: أنَّ اللّهَ تعالى لمّا جعل النُّبوَّة والكتابَ في ذريَّة نوحٍ وإبراهيمَ ﷺ، فمِنْهم مَن اهتدى بسببِ ذلك، ومِنْهُم مَنْ خرَجَ عن أمرِ اللّه تعالى وطاعتِهِ مع توفُّرِ أسبابِ الهدايَةِ، فكانَتِ الفاءُ رابطةً بينَ السّبب والمُسَبَّب.

بيانُ أنّ الهدايةَ نتيجة لاصطفاءِ الإلهيّ بالنّبوّة والكتاب

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 472.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 329.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(5) المظهري، التفسير المظهري: 9/ 202.

حقُّ التَّفصيلِ أن يَرِدَ بعدَ الإجمالِ

ويجوز أن تكونَ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ للتّعقيب في الذّكر، أي: لتفصيلِ ما أُجْمِلَ قبلُ؛ إذْ إنَّ حقَّ تفصيل المجمل أن يُذكرَ بعد ذكر الإجمال[1].

معنى (مِن) في القيد (منهم):

قلّةُ المهتدينَ؛ لغلبة الهَوى على أكثرِ الخَلْقِ

(مِنْ) في شبه الجملة ﴿فَمِنْهُم﴾ دالٌّ على التّبعيض[2]، الدّالّ على الانتقاء مِن بين الذّرّيّة أو مِنَ المرسَل إليهم[3]، وعلى أنَّ المهتديَ هم بعضُ الذين أُرسلَت إليهم الرُّسُلُ، فمَعَ عِظَمِ الهدايةِ الكامنةِ في النُّبوَّة والكتابِ إلّا أنَّ المهتديَ قليلٌ؛ لغلبةِ الهَوى على كثيرٍ مِنَ الخَلْقِ، وأنَّ المُهْتَدين هُم من ذوي الأصل المبارَكِ، والمُرْتَبطين بالنُّبوَّة والكتابِ.

فائدة التّعبير بشبه الجملة (مِنْهم):

إظهارُ القدرَةِ الإلهيَّةِ، فالهدايةُ والإضلالُ بيدِ اللهِ تَعالى

لَمّا كان مظهَرُ العظمة الإلهيّة يَقْتضي إشقاءَ مَن أراد اللّهُ تَعالى إشقاءَهُ دونَ مبالاة بحالِ أحدٍ؛ ليُظهر أنّ الهدايةَ والهلاك بيدِ اللّهِ تَعالى وحدَهُ، فلا يأمن أحدٌ مِنَ الوقوعِ في الخسران، ولا ييأس أحدٌ، فيلزمه الهوانُ؛ جيء بالقيد (مِنْهُم) في قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾[4] جمعًا بينَ العُموم والخصوصيَّة؛ للدَّلالةِ على شُمولِ الاختيارِ الإلهيّ وعدالةِ القضاءِ الرّبّانيِّ.

دلالةُ التّعبير بالإضمارِ في قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾:

اختزال بليغٌ وتركيزٌ دقيقٌ

قول اللّهِ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾، أي: "فمن ذرّيتهما مُهتدٍ إلى الحقّ مستبصرٌ"[5]، وقد جيء به مضمرًا لقُربِ العَهْدِ بمرْجِعه، ولأنَّ الإضمارَ هنا يُضْفي على الكلام إيقاعًا أكثرَ اختزالًا وتركيزًا.

(1) محيي الدين زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، ص: 4927.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 360.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 213.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 202.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ القِلَّةِ والكثرةِ مع ﴿مُّهْتَدٍ﴾:

شرفُ الهدايةِ لا يُقاس بالعدَدِ

لم يوصَف المهتدي في قول اللهِ تَعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ بقلّةٍ ولا بكَثْرَةٍ، مقابل وصف الفاسقين بالكثرة؛ للإشارة إلى أنّ الهداية منزلةٌ عظيمَةٌ لا تُقاس بالعدد، بل تُقاس بالصّفاء والصّدقِ، فكأنّ المهتدين هُم الصّفوة الذين لا يُحتاج إلى تَعْدادِهم؛ إذْ يكفي شرفُ الهداية بذاتها، بخلاف الفسقِ؛ فلِكَثْرَةِ وُقوعِهِ وانتشارِهِ اقتضى البيانُ أن يُذكَر معهُ لفظ الكثرةِ ﴿وَكَثِيرٌ﴾؛ لإظهارِ تَفَشّي الانحرافِ على الرّغم مِن وجود أنوارِ النُّبوَّة والكتابِ في الذُّرّيَّة.

دلالَةُ التّعبيرِ بلفظ الهداية دون الإيمان:

الهدايةُ سلوكُ طريقِ الحقِّ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ وصْفَ المهتدي دون المؤمنِ؛ لأنَّ هَذا الوصف له عنايةٌ بالنّتيجة العَمليّة وهي سلوكُ طريقِ الحقّ، فالمهتدي هوَ مَن ظهَرَت آثارُ الإيمانِ في سُلوكِهِ وتصرُّفاتِه، والتّعبيرُ بوصف الهداية أنسب لذِكْرِ مقابلِه، وهو الفِسْقُ؛ إذ الفسقُ خروجٌ عن الطّاعةِ، فكانت الهدايةُ سلوكَ سبيلِ الحقِّ والانقيادَ إليه.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿مُّهْتَدٍ﴾:

انقيادٌ كامل للحقّ، وهدايةٌ متجذّرةٌ في النّفس

عُبِّرَ بلفظ ﴿مُّهْتَدٍ﴾ دون (هادٍ)؛ لكونِهِ أدقَّ وأبين وأنسبَ للمقام؛ إذ الهادي يدلُّ على مَن يملك دلالةَ غيرِه، بخلاف المهتدي؛ فإنَّهُ يدلّ على استقامة العَبْدِ في ذاتِه، وانقياده الكامل للحقّ، فتظهر الهدايةُ أثرًا باطنيًّا متجذِّرًا، مستمسكًا بالعهْدِ، لا يزيغ عن طريقِ الأصفياء، وإن كان مِن نسلِ الأعداءِ[1].

تمييزُ مَن قَبِلَ الهدايةَ ممَّن رفضَها

وأيضًا فإنَّ اختيار لفظِ ﴿مُّهْتَدٍ﴾ فيه عنايةٌ بالفَرْدِ بوصفه منتفعًا بالهداية، لا فاعلًا لها، ممّا يناسب السّياق الذي يُبيّن حال ذرّية نوح وإبراهيمَ عليهما السلام، ويُفرّق بين من استجاب للهداية، ومَن فسق عنها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.

فالمقام مقامُ تمييز بين من قَبِل الهداية ومَن رفَضها، لا مقام دعوةٍ أو تبليغٍ.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسمِ ﴿مُّهْتَدٍ﴾ دون الفعل:

الهدايَةُ المَحْمودُ أصحابُها ما كانَت مُسْتَقِرَّة مُداوَمًا عَلَيْها

عُبِّر بالاسم في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ دون الفعلِ؛ لدلالةِ الاسمِ على الثُّبوت والاستمرارِ، أي: إنَّ مِنْهم مَن اهْتَدى، وثبَت على دينِه، واستمرَّ على ذلكَ[1]، بخلاف الفعلِ الدّالِّ على الحُدوثِ، فالاسْمُ أدلُّ على الاستمرارِ والدَّوامِ مِنَ الفِعْلِ، فكانَ هَذا الوصفُ توكيدًا لاستقرارِ الهدايةِ وثباتِها فيهِم.

دلالَةُ استِعْمالِ الواو في ﴿وَكَثِيرٌ﴾:

بيانُ التَّقابُلِ بين فريقَي المهتدينَ والفاسقينَ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عاطفَةٌ ما بعدها على جملةِ: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾؛ لتأكيد معنى البَعضيَّةِ[2]، وبين الجملتينِ توسُّطٌ بين الكمالين؛ لاشتراكِهما في الخبريَّةِ، ولما بينَهما من المُناسبةِ لفظًا ومعنًى، فأمّا في اللَّفظِ؛ فلاتِّحاهما في الاسميَّةِ، وأمّا في المعنى؛ فلِما فيهما مِنَ التَّضادِّ والتَّقابُل بين المهتدينَ والفاسقينَ.

سِرُّ التَّعبير بلفظ الكثرة مع الفاسقين:

بيانُ الغَلَبَةِ في العَدَدِ للفاسِقينَ مع إبرازِ شرَفِ الهِدايَةِ

استُعْمِلَ لفظُ الكثرة مع الفاسقين، ولم يَستَعمِلْهُ معَ المُهْتَدي، فلَم يُسَوِّ بين الطّرفين بأن يقولَ: (فمنهم مهتدٍ، ومِنْهُم فاسقون)؛ لأنَّ المرادَ الإشارةُ إلى أنَّ الغلبَةَ عَدَدًا في الذّرّيّة للفسّاق[3]، مع الإشارة إلى أنَّ الهدايةَ لم تَخْلُ فيهِم، فاستوعب اللّفظُ الذُّرّيَّةَ الموصوفةَ بسلوكِ طريقِ الحقِّ وبالانحرافِ عَنْهُ[4].

ذمُّ مَن زاغَ بعد تذكيرِهِ بالكتُبِ والرّسلِ:

وفي التّعبير بلفظ الكثرةِ أيضًا إشارةٌ إلى الذَّمِّ؛ إذ إنّ مَن زاغ

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 310.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 534.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 481.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 304.

بَعْدَ تذكيرِهِ بالكُتُبِ والرُّسُل؛ كان مستحقًّا للمبالغة في الذّمّ، ولو كان واحدًا، فكيف إذا كان كثيرًا؟.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَكَثِيرٌ﴾:

بـيـانُ شُـيـوعِ الفِسْقِ وغلَبَتِه

الفاسقون في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ هُمُ الخارجونَ عن طاعة اللّه تعالى ورسله ودينه، وجاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿وَكَثِيرٌ﴾، ولم يقل: وأكثرهم فاسقون؛ إذ إنَّ (أكثر) على وزن (أفْعَل)، وهي تدلُّ على زيادةٍ عدديَّةٍ تفوقُ الكثرةَ المُعْتادَةَ، بخلافِ لفظِ (كثير)، والمقامُ ليس مقامَ مقارنَةٍ، بل لوصْفِ غلبَةِ الفسْقِ وشيوعِهِ، وحتّى يوصَفَ بالفسْقِ لا بدَّ مِن تبليغِهِ أوّلًا والعلم؛ لأنَّ من الفسقِ ما يكونُ عن قصد وعلم، ومنْهُ ما لا يكون كذلك[1].

دلالَةُ إعادَةِ ذِكْرِ القيد ﴿مِّنْهُمْ﴾:

إظـهـارُ شـدَّةِ التَّبايُنِ في تلقّي الوحي المُنَزَّلِ

أُعيدَ شبه الجملة ﴿مِّنْهُمْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيّة جليلة؛ إذ لو اقتصَر النّصُّ على قوله: (وكثير فاسقون)؛ لاحتمل أن يكون الفسْقُ مِن غيرِهم، فجاءَ تكرار (مِنْهم)؛ لتدلَّ على أنّ الكثرة الفاسقة مِنْهُم هُم بأعيانِهم، لا مِن سواهم، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة التَّبايُنِ في استقبالِ الوحي المنزَّلِ؛ فمِنْهم مَن أقبل عليه، وانقادَ، ومِنْهُم من أعرضَ عَنْهُ، وحادَ.

سِرُّ التّعبير بالفِسْقِ دونَ الضّلالِ:

مَـن خـرجَ عَـنِ الـهـدايَـةِ بَـعْـدَ الـعِـلْـمِ بِطَـريـقِ الـحَـقِّ يستحقّ الذمَّ

عُبِّر بلفظ الفسقِ دون الضّلالِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾، مع أنّه مقتضى الظّاهرِ؛ لتقدُّم لفظِ الهداية، وعُدِلَ عنه إلى الفسْقِ؛ لأنّ الفسق هو الخروج عن الاهتداء بَعْدَ العِلْم، فلا يُقال عنه: ضلالٌ مُطْلَقٌ، فلو عُبّر بلفظ: (ومنهم ضالّون)؛ لم يُفْهَم مِنْهُ إلّا أنَّهم لم يسلكوا طريقَ الحقِّ من غير بيانِ نوعِ هذا الضَّلالِ، أكان عن علمٍ وقصْدٍ أمْ كان عن خطأٍ وذهولٍ؟

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الزّري: 11/ 360.

فلمّا قال الله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ عُلِمَ "أنَّهم خرجوا من الطَّريق المستقيم بعد أن تمكَّنوا من الوصول إليه، وبعد أن عرفوهُ حقَّ المعرفَةِ، وهَذا أبلَغُ في الذَّمِّ وأشَدُّ في الاستهجانِ لِعَمَلِهِم[1].

سِرُّ العُدولِ عَن سَنَنِ المقابلة:

المبالغة في الذمّ لشدَّةِ انحرافِهِم عـن الـصِّـراطِ المستقيمِ

في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ عدولٌ بلاغيٌّ عن سَنَنِ المقابلة؛ إذ كان يُتوقَّع ذِكْرُ (ضالّ) لمُقابلَةِ المُهْتَدين إلى استعمالِ تعبيرِ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ دليلًا على المبالغة في الذَّمِّ، فإنَّ الانحراف عن الصِّراط المُستَقيم قَد يكونُ بعدَ الدُّخول فيه أو لا، فالتَّعبير بالفِسْقِ – وهو خروجٌ – لتنزيلِ تَمَكُّنهم من الدُّخول فيه منزلَةَ الدُّخول فيه حقيقةً، فكأنَّهُم دَخَلوا، ثُمَّ خَرَجوا ارتدادًا، وهَذا مَنْشَأُ المُبالغَةِ في الذَّمِّ، وفي هذا العدولِ أيْضًا تسجيلٌ عَلى أهْلِ الضَّلالِ[2].

دلالَةُ التّعبيرِ بالجَمْعِ ﴿فَاسِقُونَ﴾:

بيانُ عِظَمِ شأنِ المُهْتَدين وحقارةِ الفاسِقينَ

إفرادُ المُهْتَدين وجَمْعُ الفاسقينَ يُشير إلى تمايُزٍ جوهريٍّ في طبيعة كلِّ فريقٍ، فالمهتدون ذواتٌ مُتَّصفون بشخصيَّة متميّزة، يوزَن الفردُ منهُم بميزانِ الذّهب، ويُحْسَبُ بحساب الجواهرِ الكريمَةِ، جوهَرَةً جَوْهرة، ممّا يؤكِّد على قيمةِ النَّوْعيَّة والجَوْدَةِ الفَرْديَّة، وفي المقابل فإنَّ أهلَ الضّلال – وهُمْ غثاء كغثاءِ السَّيل – يُحْسَبون حِساب الحطَب، ويعدّون عدَّ الحَصى[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الفاعل ﴿فَاسِقُونَ﴾ دون الفعلِ (يَفْسُقون):

تـأصُّـلُ الـفِـسْـقِ فـيـهِـم، واسـتـمـرارُهـم عليهِ

جاءَ التَّعبيرُ باسْم الفاعل ﴿فَاسِقُونَ﴾ بدلًا من الفِعْلِ المُضارِع (يفسقون)؛ للدَّلالَةِ عَلى الثّبوتِ والرُّسوخ، ممّا يعني أنَّ صفة الخروجِ عَن طاعةِ اللهِ تَعالى صار حالًا ثابتَةً مستمرَّةً ومتأصِّلَةً

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 184، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 496.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 474.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 792.

فيهِم، ويتجسَّد هذا الثّبوت في أعمالِهم المُتَمثِّلة في تَرْكِ نُصوص كتُبِهِم وتَحْريفها، وإيثار آراءِ الأحبار والرُّهبان على كلام الله تَعالى، وارتكابِ ما نُهوا عنه[1].

بلاغَةُ تَذْييلِ الآيةِ بذِكْرِ المُهْتَدين والفاسقينَ:

مواساةُ النّبيِّ ﷺ بذِكْرِ حالِ الأُمَمِ السّابقةِ مَع أقوامِهِم

في تذييل الآيةِ بذِكْرِ فَريقَي المُهْتَدين والفاسقينَ توجيهُ رسالةٍ إلى الرّسول ﷺ؛ إذ تخبره أنَّ حال قومِهِ الذين انْقَسَموا بين تابعٍ ومُعْرِضٍ لَم يكن بدعًا من الأمر، فقد كان في قوم الرُّسُل السّابقين مَن اتَّبعوا رُسُلَهُم فصاروا مُهْتَدين، ومنهم من ترك اتِّباعهم، وخرجَ عَن أمر الله تَعالى، فصاروا فاسِقينَ، وبذلك يسكُنُ قَلْبُه، ويَصْبِرُ على عِنادِ قومِه؛ فالموقفُ كلّه يؤكّد لهُ أنّه ليس أوّلَ مَن كُذِّب، وعونِد[2]، وبذلك يَجِدُ تسليتَهُ في أنَّ آباءَه من الأنبياء قَد جرى لهم معَ أقوامهم مثلُ ما جَرى لَهُ[3].

بيان المُتشابَه اللّفْظي مع آيَةِ العَنْكبوتِ:

التَّصرُّفُ في إفرادِ الضّميرِ وتثنيتِه مراعاةً للسّياقِ

قال اللّهُ تعالى هنا: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27]، ووجه الاختلاف بين الآيتين في إفراد الضَّمير وتثنيَتِه؛ وذلك لاختلاف سياقِ الآيتين، ففي آية العنكبوتِ كان السّياق قد افتُتِح بذِكْرِ إبراهيمَ عليه السلام وحده، في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [العنكبوت: 27]، فناسب ذلك أن يأتي الضّميرُ مفردًا في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27]، أمّا في آية الحديد؛ فقد بُدِئت الآية بذكر نبيَّيْن معًا في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾، فلمّا تعلَّق السّياقُ بِهِما كِلَيْهِما؛ جاء الضّمير بصيغةِ التّثنية المناسبة لهما

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 156.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 538.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 167.

في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[1]؛ ليصبح التَّعبيرُ دقيقًا وموافقًا لعدَدِ الأنبياء المذكورينَ في صَدْرِ كلِّ آيةٍ مِنْهُما.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِسْق والكُفْر:

الفِسْقُ خروجٌ عن طاعة اللهِ تَعالى، وهو بريدٌ إلى الكُفْرِ

يقَع الكُفْرُ "على ضروبٍ مِنَ الذّنوب، فمنها: الشّرك باللّه، ومنها الجَحْدُ للنّبوّة، ومنها استحلال ما حرّم اللّه، وهو راجِعٌ إلى جحد النّبوّة"[2]، أمّا الفسق؛ فهو "خروج مكروه، ومنهُ يقال للفأرة: الفوَيْسِقَة؛ لأنَّها تخرُج مِن جُحْرِها للإفساد... ومنه سمّي الخروج من طاعة اللّه بكبيرةٍ: فِسْقًا، ومن الخروجِ مذمومٌ ومحمود"[3]، وعبّر اللّه تعالى في قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ بالفسْقِ؛ لأنَّه خروج عن الطّاعةِ، وهو أعمُّ مِنَ الكُفْرِ، وأدقُّ في الدّلالة على حال أهل الكتاب في السّياق؛ إذ لم يكونوا كلُّهم كفّارًا، بل خرج كثير منهم عن طاعة اللّه تعالى بعد أن عرفوها، ففسدوا سلوكًا وعقيدة، فجاء التّعبير بالفسق؛ ليشمَلَ هذا الانحرافَ التّدريجيَّ، وليكونَ تحذيرًا للمؤمنين من أن تَسْلُكَ قلوبُهم الطّريق نفسَهُ نحوَ القَسْوَةِ والبعدِ عن الحقّ، فالفسْقُ هنا يعبّر عن بدايةِ الانحدار لا عَن الكُفْرِ الصَّريحِ حسبُ.

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 858.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 454.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 405.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"